أحاسيس الطفولة في شعـ

أكثر الشاعر الإسلامي الكبير عمر بهاء الدين الأميري من شعر الطفولة بشكل ملحوظ، ولعل ذلك كان تعويضا عما كان يشكو من حرمانه من ممارسة طفولته في زمنها، مما جعله يقول : « ولذلك أجد لهذه الطفولة امتدادات في كل مراحل حياتي وحتى الآن، فأحب ما يحبه الأطفال، وأحب مداعبة الأطفال وملاعبتهم»[١].

بقلم: د. خالد الحليبي
السعودية

ويشير إلى ذلك شعرا فيقول:

شـيخ ومنذ طفـولتي
شيخ، وطفل مد عمري

من هنا يبدو توجهه لهذا الشعر الطفولي كان استجابة لنداء داخلي قديم في نفسه، وليس فقط لمطالب أولاده . فغالب القصائد كانت باشتعال ذاتي للتجربة.

ومن خلال هذا الشعر صور الأميري العالم الخارجي للطفل، ومعاملاته مع الأشياء من حوله ومع الحياة والناس، وحاول أحيانا أن يدلف إلى نفسيته ليصور لحظات فرحه وخوفه، أو تصرفاته الذكية التي تبشر بمستقبل طيب. ومن ذلك : لما أرسل ابن الشاعر (بهاء الدين أوفى) إلى والده يخبره عن ولده (أحمد) بأنه« أخذ يعبث بكل ما يقع تحت يده ..»، فإن جده الشاعر قرأ هذا التصرف بمنطق علم النفس الحديث، فقال[٢]:

وصـــار (يبـــحث) لا .. لا
أقـــول : (يعـــبث) ســـعـــيك
فـــــــذاك حـب اطـلاع
وقـــد تفـــتـح وعـــيك

فالشاعر يشير إلى (دافع الاكتشافات والتحكم) الذي يمثل «الجذور الأولى للرغبة في المعرفة والاستزادة منها . ولولا وجود هذا الدافع لما وسع الإنسان من إطار حدوده ومعرفته ...»[٣].

وحين رزق ابنه (أسامة منقذ) غلاما بعد بنت، غارت البنت حينما رأت الفرحة الغامرة التي استقبل بها أخوها، وأحست أن مقامها تدنى عن ذي قبل، فعبر جدها الشاعر عن إحساسها الطفولي فقال[٤]:

وليد .. أيا بشرى .. غلام .. وكبروا
ومـازج الحـان المبـاهج تـهليلُ
وقـد أغـفلوا (آلاء) مـا كـان قـبله
سواها له عشق وعز .. وتدليلُ
فـغارت وكاد القـهريحرق قلبـها
كـأن أخاها الطفل طير أبابيلُ
وأن الزغـاريد التي انطلقـوا بـها
لمرآه، أحجار من الغيظ سجيلُ
وقالوا لها : (ببو) .. وقد جاء حاملا
هدايا، لكي ترضى .. رياء وتمثـيلُ
فأغضت، ولم تقنع .. وفي النفس غصة
ولم يجدها قالٌ .. ولم يشفـها قـيلُ
وللطفل في أعـمـاق مكنون عـقله
مـحـاكـمـة من فطرة الخلق تنزيلُ

واستند الشاعر إلى قاعدة مقبولة، وهي فطرة العقل السوية، التي تنشد العدل والمساواة

إن الأميري هنا يتسلل إلى نفسية طفلته الذكية، ليسجل آثار الغيرة الطفولية في داخلها، فهي لم تقنع بالهدايا التي يحاول أهلها بها أن يغيروا من وقع انصراف اهتمامهم عنها، حين وفد المولود الجديد . بل أحست أن ذلك محض رياء وتمثيل، وأنها فقدت ما كانت تملكه من مكانة في قلوبهم والطفل – كما يقول علم النفس الحديث : «لا يفهم سر هذا التغير المفاجئ،

ـــر الأميري مع أحفاده

الأميري مع احفاده - ١٤٠٩هـ

فيثور على أهله، ويغار من الطفل الجديد، .... (لأنه) يظن أنه احتل مكانته في قلب أمه أو في قلب من يحب»[٥]. وانفعال الغيرة - كما يقول علم النفس أيضا - : «فيه مزيج من الغضب وحب التملك»[٦].

واستند الشاعر إلى قاعدة مقبولة، وهي فطرة العقل السوية، التي تنشد العدل والمساواة، والتي تطفح بها مطالبات الأطفال في الأسرة، إذ نجد أن الطفل دائما يحتج بما ناله أخوه - دونه - من حظوة أو تملك شيء جديد سواء كان جليلا أم حقيرا.

ولم تكن هذه القصائد محض عواطف، وإنما كانت أيضا ممزوجة بالحكم والتربية، تزين الفضيلة للطفل، وتحببها إليه بأسلوب سهل رقراق، وتنفره من الرذيلة دون تشدد أو قسوة، يقول (الأميري)[٧]:

قرأتك نعماي في نشوة
وعوذت طلعتك الساحرةْ
وقد زانها زاد إشراقها
تجليك في الحلة الساترةْ
وكم في لباس التقى والنقا
جوانب تفقدها السافرةْ
فبورك نهجك يا درتي
وناغم مكنونه ظاهرةْ

ولعل الشاعر كان ينتقي هذه الأوزان الخفيفة لتتناغم مع خفة روح شعر الطفولة، ولتكون أقرب إلى قلب الطفل الذي يميل إلى مثل هذه الإيقاعات فينشدها ويحفظها.

وتقتحم هموم الشاعر عليه كل موضوعات شعره، حتى شعر الطفولة لم ينج من حرها اللاهب، ولذلك كتب لأم إحدى حفيداته حين عتبت عليه بسبب عدم كتابة قصيدة لابنتها[٨]:

يا (أم نعمى) لو نظمت مشاعري
لرأيت (نعمى)أخصبت ديوانَها
لكنني أخشى امتزاج قصائدي
فيها بنفسي، عنبِها وعذابِها

وهذا ما حدث فعلا .. في هذه القصيدة، وفي عدد آخر من قصائده[٩] وكأن همومه تغلي، فإذا فتحت لها نافذة أطلت بوجهها الحزين، لتخفف من كبتها ولواعجها، يقول[١٠]:

(أنعماي) فجرت بي زفرةٌ
من الشعر فانبجست فائرةْ
ولولا حديثك عني انطوت
بصدري مكنونة غائرةْ

وهو منحى وجد في غالب شعر أحمد شوقي مع طفليه، كما في قوله[11]:

(أمـــينة) يا بنتي الغـــاليـــةْ
أهنيك بالسنة الثـــانيـــةْ
أتدرين مـــا مـــر من حـــادث
ومـــا كـــان في السنة الماضـيـةْ
وكم قـــد خلت من أبيك الجـيـــو
ب وليست جـيـــوبك بالخـالـيـةْ
وكم قـــد شكا المرُّ في عـيـشـــه
وأنت وحلواك في نـاحـــيـــةْ
فلو حـــســـدت مـــهـــجـــة ولْدها
حـــســـدتك من طفلة لاهيـــةْ

واضح أن الأميري يلتقي شوقي في انشطار التجربة الشعرية بين موضوعين متضادين في العاطفة، الفرح بالطفولة البريئة، واستنبات طفيليات الأحزان على جدرانها الصقيلة، بما تثيره البراءة والغفلة الحلوة عند الأطفال في قلوب الكبار المليئة بهموم الحياة من أشجان وآلام. ولكنهما يفترقان في منحى هذه الهموم، فشوقي تسيطر عليه الهموم الخاصة به في غالب ما كتب لولديه، والموقف الوحيد الذي خرج فيه عن هذه الدائرة حين أهدى لابنته لعبة اختارها (بندقية) فخرجت به إلى موضوع إنساني عام تحدث فيه معها عن السلام والحرب والإنسانية[12] . أما الأميري فقد بقيت له رؤيته الإسلامية الشاملة للمعاني الروحية والعقلية والجسدية، وهمومه التي هي هموم الإسلام في العصر الحديث في الدرجة الأولى، ثم همومه وهموم الإنسانية، كما في قصائده: (علا وجدها)، و(نعمى وجدها)، و(الإمام أحمد)، و(تاج الدين وبهجة الدنيا)، ونحوها [13].

وكتب بعض الأناشيد الخفيفة على لسان بعض أولاده وأحفاده، أو على لسانه وهو يخاطبهم، بلغة مفهومة لمثلهم، معرضا عن الصور الخيالية، ذلك لأن «الصور الواقعية المحسوسة، تظل أقرب إلى عالم الطفل وأقدر على التأثير فيه من الصور الخيالية، إذا ما كانت مستمدة بخاصة من عالمه بالذات، وبكل ما يطرحه من مشكلات على صعيد الأسرة والمدرسة والمجتمع بعامة»[14]، وسبكها في أوزان خفيفة رشيقة، لأنها أسرع في الحفظ، وأقرب إلى التغني والإنشاد.

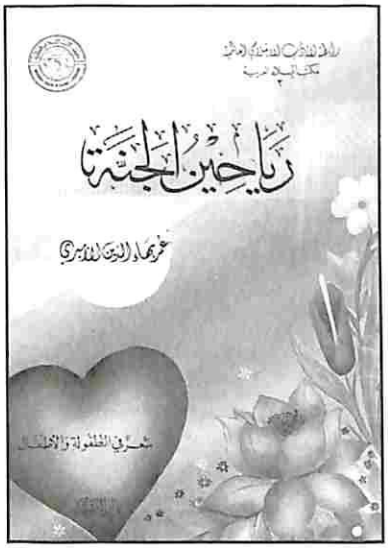

وحـــرص أن تكون هادفة مع متعتها، حيث ضمنها بعض المعـــاني الجليلة والأخـلاق الحسنة والمفاهيم الكبيرة ولكن بأسلوب سهل في مـــســـتـــوى الصغار، ليرددوها ويتأثروا بتوجيهاتها، ومنها أنشودة (غراء الحبيبة)[15]:

أنا غـــراء النجـــيـــبـــةُ
حلوة الوجـــه حـــبـــيـــبـــةُ
عـــفـــة النفس أبيـــةُ
جـــمـــة الظرف ذكـــيـــةُ
... فـــأنا أعـــبـــد ربّي
وأصـــلـــي .. والـــبّـــي
وأنـا أخـــــــدم أمّـي
بـنـشـــــــاط كل يـومِ
تبـــهـج الألعـــاب نفـسـي
بعـــــد أن أتقن درسـي
مـــــــوطني أهوى هواهُ
حـــــــقـق الـلـه مـنـاهُ

وهكذا يحرص الأميري على أن يغرس في نفوس أطفاله الإيمان القوي بالله تعالى، وبدينه القويم، وطاعة الوالدين، وحب الوطن، وغيرها من المعاني الجليلة القدر، لتؤدي الأنشودة وظيفتها التربوية، إلى جانب التسلية والإنشاد . ولقد قيل :«إن النشيد الموحي أنجح وسائل التهذيب»[16].

ومثل هذه الأناشيد - مع ندرتها عند (الأميري) - تكشف عن مقدرة أخرى عند هذا الشاعر، لم يوظفها من أجل أدب الأطفال الذي لا يزال يحبو في عالمنا العربي. فهو لم يكتب للأطفال بشكل عام أو مقصود، وإنما جاءت هذه الأناشيد بعفوية بنت موقفها. ولأطفال أسرته فقط.

وإذا كانت قيمة شعر الطفولة - موضوعيا - مرهونة

بأثره « في تربية النشء الجديد، وإبراز ملكاته الكامنة، ..... وغرس حب الوطن والعقيدة والقيم والمثل العليافي ذاتهم»[١٧] وإذا كان «نجاح شعر الطفولة ... نتيجة انعكاس العاطفة والعقل معا، بحيث يعبر عن العاطفة من خلال الكلمات والمعاني، وعن العقل في اختيار الموضوع والطريقة والأسلوب»[١٨]- إذا كان الأمر كذلك .. فقد نجح (الأميري) - إلى حد كبير - فيما كتب لأولاده وأحفاده في مرحلة طفولتهم من الشعر، وفيما مرّ من أمثلة كثيرة أدلّةٌ على هذا النجاح. ■

الهوامش:

(١) لقاء لم ينشر مع الراحل (عمر بهاء الدين الأميري)، باسل محمد، النور، العدد ١٠٤، ص٥٨ .

(٢) ديوان رياحين الجنة، من إصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ ، / ١٩٩٧م ، دار البشير ، عمان ، الأردن ، ٧ .

(٣) علم النفس العام للدكتور عبدالرحمن عدس والدكتور محيي الدين توق: ٢٩١ .

(٤)المصدر السابق، ٨٨-٨٩ .

(٥) الأسس النفسية للنمو للدكتور فؤاد البهي السيد، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٦) مبادئ علم النفس لمحمد مختار متولي ومحمد إسماعيل إبراهيم، ص ٨٩ .

(٧) ديوان رياحين الجنة، مصدر سابق، ٦٣ .

(٨) رياحين الجنة، مصدر سابق، ٤٠ .

(٩) راجع المصدر السابق : ١٨، ٤٢، ٤٤، ٤٦-٤٨ .

(١٠) المصدر السابق، ٧٠ .

(١١) الشوقيات، ٩٤/٤ -١٠٧ .

(١٢) الشوقيات، ١٠٢/٤ -١٠٤ .

(١٣) راجع رياحين الجنة، مصدر سابق، ٥٦-٥٧، ٦٠ - ٧٢، ٧٧-٧٩ .

(١٤) مجلة الموقف الأدبي، دمشق، مارس (آذار) ١٩٧٩م، ص٦ .

(١٥) ديوان رياحين الجنة، مصدر سابق، ١٩-٢٠ .

(١٦) من مقدمة سيد قطب لأناشيد محمود ابو الوفا الدينية للأطفال، ص٩ .

(١٧) الطفولة في الشعر العربي الحديث للدكتور إبراهيم محمد صبيح، ٣١١ .

(١٨) المرجع السابق، ٣١٢ .

بقلم : عمر فتال
المغرب

تبشّ عينيها الدامعتين فيه، وهو يحتضن إخوانه واحداً واحداً، ويقول فرحاً: لقد نجحت بامتياز! لقد نجحت بامتياز! ولما اتخذ له مكاناً على الأريكة، وراح يحدثهم عن الحياة في الخارج، كرت بها الذكرى، فرأت نفسها تتأبط حقيبته المدرسية، وبيدها اليمنى تضمه إليها، وتسير به على مهل وسط البرك التي ما زالت تستقبل قطرات المطر المنهمر، وبين الحين والحين، تبعد عنه شبح الانقطاع عن الدراسة الذي لاح في سمائه: اسمع يا عثمان، أتحب فصل الربيع؟ يصيح الصغير بصوت مرتعش: نعم، نعم فالربيع أحسن بكثير من الشتاء.. تتريث قليلاً ثم تواصل: «قل لي هل في استطاعة الربيع أن يعود إلينا بطيوره المغردة، وفراشاته المبتهجة التي تحب ملاحقتها، وأزهاره التي تصنع منها التيجان الجميلة بدون هذه الأمطار الغزيرة التي دفعتك إلى التفكير في التوقف عن طلب العلم؟!، يسكت الطفل، فتسترسل: كذلك الشأن معك، فبدون هذا الاستيقاظ المبكر، والتبلل والارتعاش، والتعب لا يمكنك أبداً أن تجتهد لكي تحقق ما عجز عن تحقيقه أبناء القرية.. أسمعت يا ع...؟ نظر إليها عثمان الذي كان قد تحلق حوله إخوانه وهو يهم بفتح حقيبته الكبيرة، فإذا هي ترقبهم بعينين لا تطرفان، ولما دعاها ابتسمت، ثم وقفت بدورها إلى جانب أبنائها الذين يستلمون هدايا أخيهم الكبير. ابتعد الأطفال عن الحقيبة والفرحة تدغدغ قلوبهم.. امتدت يد عثمان إلى إطار متوسط الحجم، بكلتا يديه حمله ثم اقترب من أمه، قدمه لها قائلاً: «أمي العطوف، هذه هديتي إليك، أعرفت ما هي؟! إنها الشهادة التي طالما حدثتني عنها في أثناء مرافقتك لي إلى مدرسة القرية في أيام الشتاء الممطرة، وأماسيه المظلمة.. تسلمتها الأمُّ تماماً كما كانت تستلم منه الحقيبة، لكنها هذه المرة لم تتأبط الإطار بل وضعته في اعتزاز على صدرها.. رفعت رأسها إلى السماء.. حمدت الله، وسالت دموع فرح كبير على خديها.. ■